بقلم : حنيفه فتحى

الفتاة السمراء الحلوة مضطجعةفوق الحصير ، فىبيتها الطينى الصغير ... جفونها نصف مغمضـــة . وكان الوقت ظهرا .. والحر شديدا .. وقد جعلها القيظ ترتدى منالملابس ما هو قليل... الحقول من حولها ساكنة ... والازهار على براعمها ناعسة ... حتى الطيور فى اعشاشها هاجعة...ابنة العشرة من الاعوام والاربعة كعمر القمر ، بيتها خال الا منها وحدها ... فلقـــد خرج الاب الفلاح الى حقله منذ الصباح ولم يعد ... وامها قد اودعتها سحرها منذ الطفولة ، ثم رحلت الى الابد ... وان كانت هناك فى السماء...فى كل مكان ترقبها بعين ساهرة ...

الفتاة السمراء الحلوة ... قد ورثت عن أمها..شعرها الفاحم الطويل كأنه ادغال مظلمـــة وورثت عنها عينيهـــا الســـوداوين اللامعتين المترقرقة ... ورثت نهديها المرتفعين كالجبال الشامخة وجسدها الســـمهرى كالرماح المشرعة ورثت ايضا حبها للشمس .. او حب الشمس لها ... حبها للغيوم والامطار حب الامطار والغيـــوم لها ... ورثت احلامها الذهبية لاعوامها القادمة ... وآمالها الكبـــار فى ســـنوات مشرقة ، بالرغم من سمرة قشرتهـــا الخارجية ، فقد كانت تملك قلبا من ذهب .. من فضة ... من جوهر وعقيق ... انها ابنة فلاحبسيط ... ولكنها فى كبريائها عالية ، ابنة فلاح صغير يزرع الارض بيديه ويحصدها ثم يأتى فى النهاية لابنته بخبزها...ولكنها فى خصالها غالية .

... ومن الباب نصف المنفرج ...

... والهواء يدخل متسللا ...

... اطل هو براسه متلصصا ليرى من تكون تلك الفتنـــة النـــائمة .. تلك العذراء الحلوة الســـمراء المســـتلقية ، ورآها وشعاع منور ملقى على وجهها ، وجسدها البكر ممدد فوق الحصـــير ، اجفانها نصف مغلقة وبســـمتها نصف حائرة .. انها تحلم ... تحلم بالحب والسعادة ... تحلم بالخير للانســـانية كلها ...

... وهو ... من هو ؟

... انه ضيف ... عابر سبيل اتى من المدينة ونزل مســـتجما عند بعض اصدقائه فى الضيعة المجاورة ، ثم خرج وحيدا فى الحقول الممتدة المترامية ليرى من سحر الطبيعة وجمالها ما يمحو عنه ضوضاء المدينة وضجيجها ... ما يمحو عنروحه كفرها والحادها ... اتى الى هنا ... الى الطبيعة والســـلام ...

اتى ليرى مالم يره ... ويلمس ما لم يلمسه من قبل ... هنا الحياة الآمنة والنفوس الطاهرة ... هنـــا الهواء النقى دائما ...

ووقف أمامهـــا يتفرس فيهـــا مبهورا متعبدا ... انها قطعة حية من الخيال قطعة من الفردوس فوق الثرى . وقف عند قدميهـــا بقامته الفارعة وراسه الاشقر الجميل ووجهه الابيض كقطعة من الثلج فى ذلك القيظ الشديد ...

ثم انحنى عليها ولمس ذراعيها ... ففتحت عينيهـــا ... ونظرت ... ثم ابتسمت ، وسألته عما يريد ... فقال لقد ضللت الطريق ... اننى ضيف .. صديق...أتيت من المدينة أتبع قلبى.. فقد أشار لى اليك ...

ومدت كفيها فى سلام ... وافسحت له المكان ، ثم قامت لتعد له شيئا من الطعام ... ولكنه أبى ... ثم مد يديه وامسك برسغها ... ثم أجلسها على الحصير...واتصل بينهما الحديث ... وعلم ان أباها غائب منذ الصباح ... وعليه ان يعـــود مع حلول الظـــلام . كان يلتهمها بعينيه ... يلتهم فتنتهـــا بناظريه ... وامتلأ راسه بالاوهام... وتحركت فى داخله الآثام ...من أين لها بمنقذ لو حاول أن ينالها...انها صغيرة ضعيفة ... وحيدة ... فى هذا المكان بعيدا عن العمران ... وهو قوى ... وذكى ... وثرى ...

اليس البقاء للأقوى فى هذه الحياة ؟؟

اليست شريعة الغاب هى التى تحكم وتسود مهما يبلغ بنا الرقى وتتهذب منا النفوس . انه نمـــر ... وثعبان ... بالرغم من بياض جلدته ورقة لكنته ... وهى ... من هى ؟؟ انه يدرى تماما من هى ... انها كنز ثمين ... وذهب دفين ... مهما تكن قشرته سوداء ... انها لقمة سائغة ... لقمة هنيئة لينه خلقت لمتعته...خلقت لمن هم فى ثرائه لمن هم فى فطنته .

ثم انحنى عليها...وضمها بقوة ... بلهفة وانتصار ... وخافت المســـكينة ولكنه داوم الهجوم فى لهفة المحـــروم

بيد من حديد .. حول الجسم الضعيف وكشف الجسد الصغير عن كنوزه الخفية ... كنوزه العذرية...واغترف الرجل بيديه وبفمه وشفتيه .. واستنشق العبير .. بملء رئتيه ...

وظلت العذراء على الحصير مستلقية ... تنظر الى قدميه .. الى وجهه الاصفر كصحراء بلادها ... الى عينيه الحمراوين كأنهما امتصتا كل دمائهما...ثم مدت اليه كفيها لكي يأخذ بها ... لكي ينهضها ويرفعها اليه ... لكي يفي بوعده مادام قد استباح جسدها فابتسم ساخرا...وادار لها ظهره... وانسل من الباب كما دخل ... وصاحت هي فجأة ... انتظر ... اقبلت لتتزود من الطبيعة بالايمان ام لتنفث فيها سمك الحرام ؟؟

وبهت الرجل واستدار ، وقال في احتقار : « انني دائما افعل ما أريد دون حساب ولا رقيب وانت من تظنين نفسك ... انسيت انك جارية ؟؟ ونظرت اليه في حزنها .. في أسفها .. ابن المدينة اكل جسدها ... مزق قلبها ... ولكن لم يستطع ان ينال من روحها ... انها الآن ليست طفلة ... انها سيدة ... لقد تحولت الى سيدة...لم تعد ابنة الرابعة عشرة... في لحظة الم تحولت الى ثلاثة قرون من الزمان ... ثلاثمائة عام ... من العذاب ... من الانتقام ... انها لم تعد على الحصير مستلقية ... لقد هبت امامه كالاعصار ... جسدها اللين الطويل كالسهام المشرعة ... راسها يطاول راسه ان لم يكن اطول انها سيدة نامية واعية ... لحقها العار ... فلتنتقم ... والا فلتبق جارية ... ان كفيها قاسيتان .. بدلتهما الآلام والكرامة الجريحة من هشة رقيقة الى اخرى ضارية .. اما هو .. من هو ؟؟ ... يقف امامها بأكمله .. بقوته وعظمته ... ولكنه في ناظريها ... اين هو ؟؟ حولته الشهوات والآثام الى حشرة هائمه في البراري ... في الحقول ... تبحث عن غيرها لتتغذى من الدماء الحارة... فلتكن الدماء في فمه علقما وسما ... واللحم الطري رمة بالية...انه حشرة تستطيع ان تطأها بقدميها فتقتلها ... فلتقتله ...

بكفيها ... بقدميها ... بكل ذرة من جسمها ، احاطت به وخنقته ... وانتقمت لنفسها ...

الآن هي ليست جارية ... الآن هي سيدة نفسها وعمرها ... سيدة حاضرها واعوامها الاتية .